من قلب الحصار

بصمات إيهود باراك على مستقبل العلاقة بين إسرائيل والعرب

لن يكون غريبا أن ينتهي إيهود باراك في الحياة السياسية لإسرائيل عندما يتقدم للانتخابات النيابية والرئاسية القادمة، هذا إذا تركه منافسوه في حزب العمل يتقدم. فالواقع أنه وإن كان قد عبر بأدائه عن أسلوبه الخاص في الحكم، فقد جاء هذا الأداء على يمين أسلوب بيغن وشامير ونتنياهو، أي أنه بدا كما لو كانت شخصيات الصهيونيين الأكثر تشددا تمثل (الأنا العليا) في نفسه. فأراد أن يبالغ في طريقتهم حتى لا يبقى لأحد منهم أسبقية عليه. والناس عامة، بمن فيهم الإسرائيليون، لا يتحمسون كثيرا للمطرب الذي يقلد مطربا آخر، بل يفضلون بالأحرى الاستماع إلى الأصل. ولن نذهب مع القائلين بأن جمهور الناخبين اليهود الذين انتخبوا باراك صدموا بأدائه على هذا النحو. فقد جرى اختياره من قبلهم وهم مطلعون على سجله الشخصي اطلاعا حيا. ولكنهم مع ذلك لم يجدوا فيه على محك التجربة طابع حزب العمل كما يعرفونه وكما يرتاحون إلى لونه المميز، وهو لون النظرية المشتبهة باليسار، ولون الممارسة الذي لا يموت معه الذئب ولا تفنى الغنم. فقد كشط باراك القشرة اليسارية التي تاجر بها حزب العمل طويلا في أوساط الاشتراكية الدولية، واستخدم القسوة الوحشية على نحو لا يدع للسياسة أية فرصة مهما كانت ضئيلة. أما الذين تلقوا الصدمة دون ريب فهم الناخبون العرب في إسرائيل، الذين فوجئوا بأن الرجل الذي انتخبوه على أساس كونه ممثل ما يصطلح على تسميته باليسار الإسرائيلي، لم يجلب السلام وإنما فتح سجلا للمذابح والعنف يفوق سجل ممثلي ما يصطلح على تسميته باليمين الإسرائيلي.

وسواء أعادت الانتخابات إيهود باراك إلى الحكم في إسرائيل أم جاءت بخليفة على غراره فقد نجح في وضع بصماته الدموية على مستقبل العلاقة بين إسرائيل والعرب. فمن حيث ظن أنه يملي بواسطة سلسلة استخداماته للعنف والعدوان سلامه الخاص على الفلسطينيين فعلى العكس : لقد عزز منطق جميع الذين قالوا إن السلام والتعايش مستحيلان بين العرب واليهود.. ومن حيث عمل على إشاعة الذعر في نفوس الفلسطينيين، حدث العكس : فلم تعد الغالبية العظمى منهم تجد في الحياة تحت ظل الاحتلال ما يستحق الحرص عليه.. ومن حيث ظن أنه يضع كل جندي وكل مستوطن في حصن حصين بفضل تدابيره المشددة، فقد أحدث في نفوس الفلسطينيين أصحاب المكان تعبئة وشحنا لم يسبق لهما مثيل إلا بعد مذبحة دير ياسين.

الحيوان السياسي :

وباختصار : أزال باراك بضربة واحدة آثار سياسات جميع المسؤولين الأمريكيين والإسرائيليين الذين عملوا مطولا لإفهام شريحة من الفلسطينيين أن التعايش ممكن ومفيد، وأزال كذلك الأثر الحسن الذي أحدثه أطباء يهود بارعون لدى مرضاهم وأصحاب عمل عادلون يهود لدى عمالهم، فلم يعد في الضمائر الباطنة اليوم إلا ذكريات المذابح العديدة التي ارتكبها الإسرائيليون منذ بدء استيطانهم حتى اليوم.

نحن نعرف أن الكائن البشري قادر على الأذى، وعلى التلون، وعلى الكيد، وأن الحيوان السياسي - على وجه أخص - قادر على ما هو أسوأ.. ولكن إيهود باراك وحده حالة غير عادية بين البشر وبين السياسيين. لقد تكشف هذا الجنرال الذي لم يمض على بداية رئاسته حكومة الاحتلال أكثر من ستة أشهر، عن أسوأ نموذج بين سابقيه من رؤساء وزراء إسرائيل، لا لأنه ماطل في المواعيد، ولا لأنه مارس القمع الدموي، ولا لأنه أخلف وعود السلام التي علقت عليه، ولا لأنه برهن على مقت هائل للعرب أهل البلاد، فقد فعل ذلك سابقوه من قبله بقدر أكبر أو أصغر. وهو ليس أقدر على الخداع والمماطلة من بيريس، ولا أفظع دموية من بيغن، ولا أشد مقتا للفلسطينيين من نتنياهو، ولكنه بين هؤلاء جميعا أثبت أنه (رجل صغير)، بمقياس الحكام، سواء أكانوا أعداء أم محايدين. وضربة الرجل الصغير هي دائما أقسى وأشنع من ضربة المحارب مكتمل الشخصية. وتفسير ذلك أن هذا الرجل الذي برز إلى عالم السياسة من خلال خلفيته رئيسا لأركان جيش الاحتلال، وانتمائه في الوقت نفسه لحزب العمل، والذي فاز في الانتخابات لسببين : سبب شخصي يتصل برغبة الناخبين في تجنب السياسيين المحترفين الذين فاحت روائح فسادهم منذ سنوات

عديدة، وسبب عام يتصل برغبة نصف الإسرائيليين على الأقل في التمتع بالرفاهية الحاضرة بعيدا عن الخوف والتهديد وأعمال النسف والتدمير ؛ هذا الرجل لم يتخلص من عقلية مخطط ومنفذ الاغتيالات رقم واحد في إسرائيل. ولا بد أنه في حال رغبته بالعودة إلى القوات المسلحة،يستطيع دائما أن يجد مركزا مناسبا له في وحدات العمليات الخاصة ـ فرع الاغتيالات.

يبدو أنه مسكون في روحه بالقتل والاغتيال. وليس صدفة أنه قاد بنفسه عملية اغتيال الشهداء محمد النجار وكمال عدوان وكمال ناصر في بيروت متخفيا بثوب امرأة، وقاد بنفسه عملية اغتيال الشهيد خليل الوزير في تونس. فالمرء يتطوع عادة للمهمات الأقرب إلى مزاجه ونفسيته ودوافعه العميقة. فإذا أضفنا أيضا تلك اللقطة الفوتوغرافية التي سجلت وقوفه فوق رأس الشهيدة دلال المغربي، وهو يفرغ رشاشه في جسدها انتقاما بعد موتها، عرفنا أي نمط من الشخصيات هو، وأدركنا أن مثله مشدود بطبعه إلى مثل هذه الأنشطة. وكل ما عداها ثانوي عنده بالقياس إليها. وبإمكان المراهنين أن يراهنوا مطمئنين إلى أنه قضى جل وقته في أسابيع الانتفاضة التسعة الماضية في غرفة العمليات برئاسة أركان الجيش، يشرف على تفاصيل تنفيذ خطة حقل الشوك، مع إضافات وتعديلات تحمل طابعه الاغتيالي. ولعله لم يشعر أثناء عمله رئيسا للوزراء بتحقيق الذات كما شعر بذلك حين عاد إلى رسم خطط القمع والاغتيال والقصف والدمار ومتابعة تنفيذها.

قطع الأعناق والأرزاق:

ونتذكر بالمقارنة أنه في عام ١٩٦٧ كان موشي دايان وزيرا للدفاع حين احتل الجيش الإسرائيلي قطاع غزة والضفة الغربية. وبدأت أعمال المقاومة في القطاع مبكرة. فأصدر دايان أوامره باتخاذ سلسلة من إجراءات العقاب الجماعي وإجراءات إزالة أسيجة المزارع وقطع صفوف من أشجار البيارات المثمرة على الطرق العامة. ولكن دايان الذي لم يكن أقل من باراك بغضا للمقاومين وللعرب عموما، كان في الوقت نفسه صاحب سياسة.. فقد حرص في عقابه الجماعي عندما مرت البرهة الأولى من الاحتلال على الإيحاء بأن المقصودين بالعقاب هم الفدائيون وحدهم، وذلك في محاولة منه لإحداث قطيعة ما بين الفدائيين وجمهور الناس. وأراد الإيحاء بأن الأشجار التي تقطع والأسيجة التي تزال هي الأشجار والأسيجة التي تحجب رؤية آليات الجيش المارة، وأنه يعمل في حدود الضرورة دون أن يكون مراده تكبيد المزارعين خسارة لا داعي لها.أما باراك فجميع إجراءاته ناطقة بأن الكيد والتنكيل والتشفي كانت عنصرا مستديما في جميع إجراءاته وخطواته غير المسبوقة. بل إن العودة بالذاكرة إلى الحركة التي اقترفها شارون بمداهمته المسجد الأقصى في حراسة عسكر باراك، تدل على أنها حركة استفزازية مقصود فيها التحدي والكيد وإبداء الاستهانة بمشاعر الفلسطينيين والعرب والمسلمين. وأكثر من ذلك إنها كانت نوعا من استدراج الفلسطينيين إلى حمام دم جاهز معد لهم بمعرفة باراك وأجهزة مخابراته، وإلا هل كان يغيب عن ذهن باراك (وشارون طبعا) أن تلك الحركة لن تمر دون ثورة من جانب الرأي العام الفلسطيني والعربي والإسلامي؟ كلا، بل إن حمام الدم الذي جرى في اليوم التالي وأطلقت فيه النيران بغزارة على المصلين داخل عمق المسجد الأقصى كان ناطقا بأنه جزء من السيناريو المتصور والمعد له مسبقا بدم بارد في غرفة عمليات باراك.

فوهتا بندقيتين وعينا طفل واحد:

ثم توالت أيام الانتفاضة ولياليها. فلم تشرق شمس ولم تغرب شمس إلا على قتلى وعلى جنازات. وليس قتل الفلسطينيين على يد الإسرائيليين بجديد، حتى لو كان الضحايا أطفالا. لكن من بصمات باراك تفرده بالرقم القياسي في قتل الأطفال. ولا يجوز لنا ولا للإنسانية ـ إذا كانت إنسانية حقا ـ أن نضرب صفحا عن عدد الأطفال الذين قتلوا بأوامر باراك. فخلال شهرين فقط قتل الجيش الإسرائيلي ٩١ طفلا تحت سن ١٨ عاما، وأصاب بالجراح البليغة والعاهات المستديمة ٣٧١٥ طفلا من الفئة العمرية ذاتها.. وهذا غير الشهداء والمصابين من الفئات العمرية الأخرى علما بأن العدد الإجمالي للشهداء في المستشفيات حتى ١/ ١٢ / ٢٠٠٠ بلغ ٢٦٣ شهيدا، أما المصابون فبلغ عددهم الإجمالي ٩٢٨٩ مصابا.

هذه بعض الأرقام الرسمية التي وجدناها على مكتب وزير الصحة الدكتور رياض الزعنون. ولا شك أن للأرقام بلاغتها. ولكن الأرقام الصماء لا تستطيع أن تعبر تعبيرا كافيا عن بعض المعاني الهامة التي تميزت بها حرب الجنرال باراك ضد الفلسطينيين المنتفضين العزل. فعندما تقول التقارير المقدمة إلى وزير الصحة إن هنالك ١٩ طفلا وفتى يافعا فقد كل منهم عينا واحدة برصاص القناصة، وإن هنالك طفلا فقد عينيه الاثنتين، فلا بد أن نشفع ذلك بملاحظة تنويرية مهنية خاصة حول الطراز الأمريكي المتقدم من البنادق القناصة التي تزودت بها مفارز القناصين المدربين. وقد أشار الجنرال رئيس الوزراء بتسليح القناصين المدربين بأحدث طرازات البنادق القناصة المزودة بأجهزة إلكترونية بالغة الدقة. أتوزعهم على الدشم والدبابات. ومن خلف البروج المشيدة راح هؤلاء الجنود العنصريون الفرحون باستخدام عدتهم الجديدة ضد أجساد حية صغيرة يمارسون متعة التأكد من مزايا السلاح الجديد ومتعة المراهنة فيما بينهم على من يبدي مهارة أكبر في إصابة هدف بالغ الصغر هو العين البشرية للطفل الصغير الفلسطيني. ومن الواضح أنه بالنسبة للطفل الذي فقد عينيه الاثنتين كان هناك جنديان في اللحظة نفسها يصوب أحدهما نحو العين اليمنى ويصوب الآخر نحو العين اليسرى، والنتيجة أن أيا منهما لم يكن خاسرا في الرهان.

وكانت مناسبة حملة القمع التي هندسها وقادها باراك مهرجانا كبيرا أيضا لطياري الهليوكوبتر من طراز الأباتشي، وهم يتمرنون على إطلاق صواريخ جو - أرض على الأجساد الحية للهنود الحمر الفلسطينيين. فهناك إصابات عديدة بالصواريخ لأفراد فلسطينيين، ولعل مخترعي الصواريخ سيضيفون إلى مزايا صواريخهم المحمولة بالهليوكوبتر أنها تصلح أيضا لقتل الأفراد إضافة إلى استخداماتها (التقليدية) ضد الدبابات والمباني الحصينة !

الروبوت والشهداء:

كذلك استخدم الجيش الإسرائيلي للمرة الأولى الإنسان الآلي (الروبوت) المصنوع من الحديد، ليتناول من سيارة مغلقة الأبواب جثتي إنسانين من لحم ودم هما الشهيدان الفلسطينيان منذر ياسين و محمد المدهون. فيا له من انتصار مدو للتكنولوجيا على اللحم والعظم البشري.. ولكن ليس على الروح الفلسطينية.. ما دام أن ابن عم الشهيد منذر ياسين، وهو شاب يماثله سنا واسمه رامي ياسين، صمم حين رأى في التلفاز مشهد الروبوت يعض جثة ابن عمه، على الذهاب بدوره لمواجهة جيش الاحتلال، وهكذا تماما حدث، واستشهد رامي في المواجهة كما استشهد منذر.

وكما ضرب جنرال الاغتيالات رقما قياسيا في عدد الأطفال القتلى، فقد ضرب رقما قياسيا في عدد الأشجار المثمرة المقتلعة من جذورها، وبينها أشجار زيتون قديمة في منطقة دير البلح والقرارة وخانيونس ورفح، فضلا عن منطقة الشجاعية والطريق الشرقية وجحر الديك والبوليس الحربي والمغراقة بغزة. لقد جرفت آلات الدمار التي يقودها جنود الجيش الإسرائيلي

بساتين برتقال كاملة، صفوفا صفوفا من الشجر المثمر الذي يحمل ثمارا لم تنضج بعد وثمارا ناضجة. وقد قيل إن تجريف الأشجار بعمق مائة متر على كل جانب من جانبي طريق صلاح الدين الدولي أمر تدعو له سلامة جيش الاحتلال الذي ينوي الإقامة الدائمة، ولكن الذين يعرفون تدابير الاحتلال وخرائط التنظيم التي اعتمدها للمناطق الفلسطينية يجد أن الاحتلال يطبق خططا سابقة كان قد شرع فيها من قبل، ويضع موضع التنفيذ خرائطه المرسومة التي تسهل عمل آلياته وطائراته ومستوطناته، في حين تحرم المواطنين الفلسطينيين في قطاع غزة الضيق أصلا من مزيد من الأرض الزراعية وأرض البناء.

وقد زاد باراك على سابقيه الذين أباحوا هدم بيوت الفلسطينيين وتجريفها إذا كانت تخص عائلة فدائي فلسطيني، فقام باراك بتجريف بيوت بالجملة دون أن تكون بيوت فدائيين، لغير ذريعة سوى أنها ليست بعيدة عن الإسفلت العام بمسافة الأمان التي ابتدعها باراك. ويجب أن نقول بالتالي إن من بصمات باراك عدم حاجته للذرائع كي يوقع الدمار والأذى. ومن خصائصه أيضا وأيضا ردم الآبار التي تروي الزراعات في المناطق التي اقتلع أشجارها ومزروعاتها. وأخيرا - لا آخرا والحق يقال - قيام الحكومة التي يرأسها بسرقة آلات مصنعي الكرتون والألومنيوم بمنطقة القرارة على طريق وخانيونس. فقد اعتبر باراك ماكينات المصنعين بمثابة غنائم حرب، وهكذا جاءت الشاحنات الكبيرة فحملتها إلى داخل الخط الأخضر، قبل أن

تنسف مباني المصانع وبيوت أصحابها الذين لم يسكنوها بعد ! ثم تردم أنقاضها وتدفنها في وادي السلقا.

الكلام للجارة:

ما الذي دعا إيهود باراك بعد أن فعل ما فعل ـ وهو أعلم الناس بما اقترفت يداه ـ للتقدم باقتراح اتفاق انتقالي جديد طويل الأمد مع الجانب الفلسطيني، على أساس تجميد قضية القدس وقضية اللاجئين مدة ثلاث سنوات، والاعتراف بدولة فلسطينية، مع تسليم الجانب الفلسطيني مساحة ١٠% من الضفة الغربية؟ هل الرجل جاد أم هازل؟ وما الجديد في هذا العرض؟ وما السبب في اختيار هذا التوقيت لإعلانه؟ هل له علاقة بالوضع الانتخابي الإسرائيلي؟ أم حسب باراك أن الثمرة الفلسطينية أوشكت الآن على السقوط بعد حمام الدم الفلسطيني الذي مر عليه أكثر من سبعين يوما؟

وقبل هذه الأسئلة كلها : أليس غريبا، من ناحية السلوك البشري، أن يفعل باراك ما فعله، وما هو مستمر في فعله في اللحظة الحاضرة، ثم يأتي للفلسطينيين يعرض عليهم أي حل، ويدعوهم إلى سلام متفاوض عليه؟ بل أليس الأغرب من ذلك أن يذهب بعد ذلك إلى عرب ٤٨ داخل الخط الأخضر لمحاولة إقناعهم بالتصويت لصالحه في الانتخابات القادمة، طالبا منهم أن ينسوا الماضي؟! مع أنه أعاد الماضي ومازال يعيده كل يوم. فما هم هؤلاء البشر يا ترى، ومن أي نحاس صنعت جلدة وجوههم؟

في اعتقادي على كل حال أن السبب الذي حدا بباراك كي يتقدم بالعرض الذي وجهه للفلسطينيين ظاهريا، سبب مرتبط بالانتخابات الأمريكية أكثر مما هو مرتبط بالانتخابات الإسرائيلية. والخطاب فيه ليس موجها إلى الفلسطينيين وإنما إلى الإدارة الأمريكية الجديدة القادمة ـ التي يبدو من مجمل النتائج المعلنة حتى الآن أن الغلبة فيها من حظ بوش لا من حظ جور ـ. أما المناسبة المباشرة التي أملت على باراك أن يوجه الخطاب إليها فهو شروع بوش في الإعداد لاستلام الإدارة مؤخرا، وقيام البيت الأبيض بإمداده بالتقارير حول القضايا قيد الاهتمام والعمل. وأكاد أقول بالتالي إن الكلام موجه إلى بوش من ناحية وإلى اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة من ناحية أخرى، بغية وضع الرئيس القادم أمام مبادرة إسرائيلية معينة، وتسليط اللوبي اليهودي عليه ليجعل المبادرة الإسرائيلية بحيثياتها مرجع تحركه إذا أراد أن يجعل للشرق الأوسط أولوية في جدول أعماله القادم، وهو أمر محتمل بالنظر إلى غليان المنطقة.

أين يلتوي المنطق؟

نعم، ولم يكن الخطاب موجها للفلسطينيين، لأن الفلسطينيين سبق أن رفضوا عناصر ذلك العرض من قبل. فتجميد البحث في موضوع القدس معناه ترك الحكومات الإسرائيلية المتتالية تنفذ برنامج تهويد القدس الشرقية عبر استيطان زاحف قاضم، ومن خلال تجريد أهالي القدس من هوياتهم المقدسية التي تحفظ وضعهم الحقوقي في مدينة آبائهم وأجدادهم. وتجميد البحث في موضوع اللاجئين معناه الالتفاف على مفهوم تسوية القضية الفلسطينية واستبداله من أساسه بمفهوم آخر هو تحديد الشروط التي يقبلها الاحتلال الإسرائيلي لحياة السكان الفلسطينيين (على حد تعبير الإسرائيليين) فيما بقي بأيديهم من أراض محدودة في الضفة والقطاع. والقبول بذلك مستحيل اليوم وغدا وإلى قرب قيام الساعة.

إنها مناورة تكتيكية إذن. على الرغم من الأنباء الصحفية التي تتحدث عن اجتماعات تنسيق أمني هنا وهناك، والأنباء الأخرى التي تتحدث عن محادثات سرية تجري في عاصمة أجنبية. فحتى لو كان ذلك صحيحا، وحتى لو افترضنا وجود قاسم مشترك يمكن أن يصل له الطرفان فإن الوقت لا يكفي، وإن باراك ليس رجل تسوية، وإن الوضع الداخلي الإسرائيلي غير مؤهل إلا للحرب. أضف إلى هذه العوامل كلها أن أمريكا ما زالت بلا رأس.

والمشكلة على كل حال لخصتها آية كريمة تقول (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون). فعلى الرغم من أن الإسرائيليين كلهم يتفهمون المعادلة المنطقية التي تقول إنهم لا يستطيعون أن يظلوا في حالة استنفار إلى نهاية الزمان، ولا يستطيعون أن يستمروا في استمداد غذائهم من الحبل السري الذي يربطهم

ببطن أمهم الرؤوم، ولا يستطيعون أن يضمنوا تفوقهم الدائم على المحيط العربي والإسلامي الذي داهموه على حين غرة من الزمان واندسوا في وسطه وأقاموا دولتهم على ترابه، ولذا لابد من التفاهم مع هذا المحيط، ومصالحته وإقناعه بقبول اليهود مواطنين فيه ومنتمين إليه، وأن ذلك يبدأ من الفلسطينيين لأنهم قطب الرحى في القضية والمالكون المباشرون للأرض، ولا يمكن أن يوافق الفلسطينيون على ما هو أقل من حق العودة وتقرير المصير وإقامة الكيان المستقل وعاصمته القدس، فإنهم أي الإسرائيليين ـ فيما عدا قلة قليلة منهم ـ يحرفون كلام المنطق عن مواضعه، فما يكاد يصل إلى ضرورة الاعتراف للفلسطينيين بحقوقهم، وهي تقتضي بداهة انسحاب قوات الاحتلال وتسليم الأراضي لأصحابها، وذلك ما يفهمه أي إنسان طبيعي، ولو كان إسرائيليا أو أمريكيا، حتى يبدأوا في الالتواء عكس اتجاه المنطق، مبتكرين لأنفسهم منطقا يناسب شح النفس التي لا تسخو برد الشيء إلى صاحبه، فيقولون إن العرب لا يمكن أن يقبلوا إسرائيل إلا مرغمين، ولهذا فالقوة هي الضمان الوحيد لسلام إسرائيل المستقر، وعلى العرب أن يكونوا واقعيين ويعترفوا بضعفهم، فيقبلوا العيش في ظل إسرائيل بلا سيادة ولا أراض، وحسبهم أن الإسرائيليين مستعدون لكفالتهم بوصف الفلسطيني يدا عاملة لدى معلمه الإسرائيلي البارع المتفوق ويمكنه أن يعمل لصالحه في البلاد العربية سمسارا فيأكل الجاتوه وليس الخبز وحسب. ومع انسياقهم في هذا المنطق فإنهم لا يسألون أنفسهم : كيف يمكن للمرغم أن يقبل ما هو مرغم عليه؟ وإذا قبله بسبب ضعفه فإلى متى يستمر ذلك؟

الحقيقة أن فرصتهم الوحيدة مع الفلسطينيين كانت تكمن في إيجاد رصيد من الطيبات في زمن قوتهم، تنفعهم ذات يوم في زمن ضعفهم. ولكن الوقاية من شح النفس نعمة لا يؤتاها كل إنسان. فهل ذلك يا ترى هو المقصود بالآية الكريمة التي تقول : إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ... إلى آخر الآية. صدق الله العظيم